ترجمات

طقوس التفاعل عند إرفنغ غوفمان - دومينيك بيكار

إبراهيم أمغار

مركز أفكار للدراسات والأبحاث
Afkaar Center for Studies and Research

ALL RESERVED©2020
جميع الحقوق محفوظة © 2020

طقوس التفاعل عند إرفنغ غوفمان - دومينيك بيكار

ترجمة: د. إبراهيم أمغار
كلية اللغة العربية، جامعة القاضي عياض، مراكش

توطئة المترجم:

1- عن الموضوع:

تعود بنا الكاتبة في هذا المقال المترجم إلى الأساس الاجتماعي لنظريات التأدب، وهو مفهوم "طقوس التفاعل" الذي ابتكره عالم الاجتماع الأمريكي إرفنغ غوفمان Erving Goffman، وطور في إطاره نظرية للتأدب، استحدث فيها مفاهيم جديدة كان لها تأثيرها الكبير في الدراسات اللسانية التداولية.

لكن ما هو التأدب؟

من المعلوم أن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، إذ لا يعيش البشر عادة في عزلة، بل يميلون إلى أن يكونوا جزءًا من مجتمع معين وأن يتفاعلوا مع أقرانهم على أساس منتظم. وليس هذا التفاعل فوضويًا ولا يتم بطريقة عشوائية. تشكل هذه الحقيقة (التي تم تضييقها إلى التفاعل اللغوي) المبدأ الأساسي في مقالة غرايس Grice التي صارت ورقة تأسيسية "المنطق والتخاطب" (1975)، والتي وضع فيها الأسس لنظريته حول مبدأ التعاون وقواعد التخاطب وطرق إجراء الاستلزامات التخاطبية.

والتفاعل البشري، أكان لغويا أم غير ذلك، مقيد إلى درجة معينة؛ تتحكم فيه "قوانين" صريحة وضمنية. عندما يكبر الأطفال، فإنهم يكتسبون ببطء إطار المجتمع الذي يعيشون فيه، ويتحكمون تدريجياً في "القوانين" التي تتحكم في التفاعل البشري. ومن ثم، يكتشفون ما هو السلوك المناسب (المقبول اجتماعيًا، المؤدب) وما هو غير ذلك وكيفية استخدام هذه القوانين أو التلاعب بها للحصول على منافع معينة. بإيجاز، يدرك البشر، باعتبارهم كائنات اجتماعية عقلانية (قادرة على التخطيط الاستراتيجي)، حقيقة أن هناك قيودًا قوية على التفاعل (مثل التأدب)، وأن التواصل بطريقة ما ينطوي على أكثر من مجرد تبليغ رسالة. فالتواصل هو كذلك وسيلة لإقامة علاقة اجتماعية أو الحفاظ عليها أو تغييرها. ويمتلك معظمنا إحساسًا بما يشكل سلوكًا مؤدبًا، ويمكنه بشكل عام التعرف على الحالات التي يتم فيها انتهاك قواعد التأدب. والحق أن التأدب عنصر مركزي في التفاعل الاجتماعي، ويعتمد أداؤه الناجح على فهم الأطراف المعنية واحترامها لاتفاقيات السلوك المهذب. ومعظم هذه الأعراف تكون مفهومة ضمنيًا، بيد أنها تتحقق في اللغة التي نوظفها أثناء مشاركتنا في التفاعل الاجتماعي.

لقد أصبحت هذه العلاقة بين التأدب واللغة محط اهتمام كبير من قبل اللغويين. وحقيقة أن التأدب يمثل معيارًا اجتماعيًا يمكن ملاحظته تجريبيًا في اللغة وتحليله بشكل موثوق عن طريق اللغة قد جعله لفترة طويلة موضوعًا مهمًا للدراسة في اللسانيات. ويمكن لدراسة التأدب أن تساعدنا على فهم العلاقة بين اللغة والواقع الاجتماعي، وقد أكدت رائدة دراسات التأدب روبين لاكوف إمكانية أن يصير هذا المبحث «كقوة موحدة تجمع بين نظرية اللغة ونظريات الدوافع الإنسانية والسلوك والثقافة» (Lakoff, R., & Ide, S. (Eds.) 2005: *Broadening the horizon of linguistic politeness*, Amsterdam, Netherlands: John Benjamins: 3).

بالنسبة لبعض الباحثين، يمثل التأدب وسيلة لتقليل احتمالية الصراع؛ ولهذا تؤكد لاكوف، على سبيل المثال، أن «التأدب يتم تطويره من قبل المجتمعات لتقليل الاحتكاك في التفاعل الشخصي» (Lakoff, R. 1975: Language and women’s place. New York, NY: Harper: 75) بينما تعد بينلوب براون Penelope Brown وستيفن ليفينسونStephen Levinson التأدب وسيلة لتليين الأفعال التي تهدد وجه المتفاعلين، وهو المفهوم الذي اقتبسه من أعمال إرفنغ غوفمان. ومن هذا المنظور يعد التأدب أداة للتوفيق بين الرغبة المشتركة للحفاظ على ماء وجه المتفاعلين (الوجه الإيجابي) وبين التهديد المحتمل الذي تحدثه أغلب الأفعال الكلامية، كالأمر والنهي والتحذير (الوجه السلبي) (Brown, P & Levinson, S 1987: *Politeness_ Some Universals in Language Usage*, Cambridge University Press: 61).

ويوضح غابرييل كاسبر Gabriele Kasper، في نظرة عامة حول البحث في التأدب اللغوي، أن وجهات النظر هذه حول التأدب تنظر إلى التواصل باعتباره مسعى خطيرا ومعاديا بشكل أساسي (Kasper, G. 1990: «Linguistic Politeness: Current Research Issues», *Journal of Pragmatics*, 14: 194)، ويتطلب التأدب بالتالي استراتيجيات يمكن استخدامها من قبل المشاركين في التفاعل لتقليل إمكانية العداء ومخاطره.

وتطرح ماريا سيفيانو Maria Sifianou وجهة نظر مختلفة قليلا؛ إذ ترى أن التأدب «مجموعة من القيم الاجتماعية التي ترشد الفاعلين للنظر إلى بعضهم البعض من خلال تلبية التوقعات المشتركة» (Sifianou, Maria 1992: *Politeness Phenomena in England and Greece: A Cross-Cultural Perspective.* Oxford: Clarendon Press: 86).

وعلى الرغم من أن مصطلح "التأدب" لا يثير الكثير من اللغط من قبل أعضاء الجماعة اللغوية؛ إذ عادة ما يكون لدى المرء حدس قوي جدًا حول مستوى التأدب في الكلام في لغته الأصلية، إلا أنه من الصعب تعريفه كمفهوم. وفي هذا المقال تكشف لنا الكاتبة عن أصول هذه النظرية في فكر إرفنغ غوفمان. وكما سيلاحظ القارئ فإن منطلقات الاجتماعية في تحليله لهذه الظاهرة، لم تمنعه من التركيز كثيرا، لاسيما في الأمثلة التي يقدمها، على دور اللغة، أو بالأحرى الكلام، في بناء طقوس للتفاعل والتأدب.

2- عن المؤلفة:

دومينيك بيكار Dominique Picard: أستاذة علم النفس الاجتماعي بجامعة باريس 13 فيلليتانوز. أصدرت عدة مؤلفات حول التأدب والتواصل الاجتماعي واللغوي والعلاقات الإنسانية، منها كتبها الآتية التي طبعت عدة مرات:

Les Rituels du savoir-vivre, Seuil, 1995. *Politesse, savoir-vivre et relations sociales*, PUF, «Que-Sais-Je ?», 2003. *Pourquoi la politesse ? : Le savoir-vivre contre l'incivilité,* Seuil, 2007.

وشاركت مع كتاب آخرين في تأليف كتب في الموضوع نفسه من أهمها:

Relations et communications interpersonnelles, Dunod, 2000.

أما مقالها المترجم هنا، فعنوانه الأصلي بالفرنسية *Les rituels de l’interaction*، منشور ضمن كتاب جماعي:

Philippe Cabin & Jean-François Dortier (dir.), *La Communication: État des savoirs*, Sciences Humaines Eds., Paris, 3e édition actualisé, 2008, pp. 137-144.

نص المقال:

لا يمكن اعتبار طقوس التأدب موروثات عتيقة عديمة النفع، بقدر ما هي استجابة لحاجات دقيقة لحالات يومية.

ويشتمل مصطلح «التأدب» politesse (والذي ما زلنا ندعوه بـ «الآداب الحميدة» savoir-vivre أو «الأعراف» أو «اللباقة») على مجموعة من النماذج السلوكية والتوجيهات المنظمة للتفاعلات الاجتماعية.

وخلافا لبعض الأفكار الجاهزة، فإنه [أي التأدب] لا يقتصر على الإحالة على إيديولوجية وسط معين (يوصف عموما بـ «البرجوازي»)، وليس كذلك مجرد شكل خادع أو مذموم من آداب المعاشرة (الإتيكيت) يوسم بالعفوية، بل إنه يشتمل بالفعل على الصورة التطبيقية الأكثر تداولا للطقوس الاجتماعية، ومن ثم، يضم الركيزة الأساسية للعلاقات الإنسانية [(1)].

ودليل ذلك في الطابع الكوني للتأدب. فحتى لو بدت أشكاله مختلفة من ثقافة لأخرى (بالنظر إلى وسط اجتماعي)؛ فإن الأحداث الأساسية للحياة الاجتماعية في كل مكان تمثل مظهرا طقسيا. فها هنا نتبادل القبل مطولا، بينما هناك نكتفي بإشارة مختصرة، لكننا نؤدي التحية لبعضنا البعض حيثما كنا؛ وهنا يجب علينا تركيز النظر على من يخاطبنا، بينما يلزم غض البصر هناك، لكن حيثما كنا يجب إبداء الاهتمام والاحترام لخطاب الآخر... وبعيدا عن أن يكون نهجا مهجورا، من مخلفات عصر بائد، فإن التأدب، بخلاف ذلك، يعتبر ضروريا على نطاق واسع، ولا سيما في وظيفته كحصن واق ضد «الفظاظة»[(2)].

وتبرز «راهنية» التأدب هاته كذلك في ظاهرة النشر المذهلة لـ «مصنفات في الآداب الحميدة»[(3)]: فمنذ أزيد من قرن، وسنة تلو أخرى يظهر مؤلف جديد أو يعاد طبعه، ومعظمها من مطبوعات الجيب، وهذا يعني وجود قاعدة عريضة من القراء.

ويتيح تحليل مصنفات الآداب الحميدة إدراك العلاقات التذاوتية. وبتحديد أدق، يسمح بالتقاط القواعد الأساسية للتفاعلات الاجتماعية اليومية والمنطق الذي يكمن وراءها...، بما يشبه قليلا الطريقة التي تساعد بها قواعد «النحو» في فهم منطق البنيات اللغوية اليومية[(4)].

ومن هذا المنظور، فإن عبارات مثل «صباح الخير، شكرا، من فضلك» أو «امسح أنفك» أو «استقم» وسواها من التوجيهات ليست مبادئ اعتباطية بل تستجيب بالفعل لحاجيات أساسية للحياة الاجتماعية. إن تحليل طقوس التأدب، والإمساك بما يترتب عنها واكتشاف وظائفها، هو اكتشاف لعمق ثقافتنا وإدراك للمنطق العميق الذي يتحكم في العلاقات الإنسانية.

وإذن، فلأي شيء يصلح التأدب؟ فعلاوة على دوره في تقوية الانضباط الاجتماعي والتماسك لجماعة، بتبني قيم ملائمة للحياة الاجتماعية، يقوم أساسا بتأدية وظيفتين: وظيفة «سيكولوجية» هي حماية الذات، ووظيفة «تواصلية» هي تسهيل الاتصالات الاجتماعية.

---

(1) يتجلى الطقس في شكل سلسلة من سلوكات تحدث عادة دون تغيير كبير. وتختلف عن «التلقائية» أو «العادة» في أنها لا تقتصر البتة على فعل «عملي» بل تحتوي دوما على دلالة رمزية أو عاطفية. وخلافا للطقوس «المقدسة» التي يقصد منها إعادة بعث الالتزام لدى المؤمنين، فإن للطقوس الاجتماعية (أو «المدنسة») أساسا وظيفة الإدماج الاجتماعي والثقافي للفرد داخل الجماعة.

(2) منطقيا، علاوة على ذلك، ما دامت مصطلحات «التأدب» و«الآداب الحميدة»، منصوصة في اللغة الفرنسية منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر على التوالي، فقد نابت في استعمالها عن مصطلح «التحضر» بالدلالة نفسها.

(3) أي المطبوعات التي تتضمن القواعد المؤسسة للتواصل التذاوتي [بين الأشخاص] وتشرح كيفية التصرف في جميع الظروف.

(4) لمنظور أوسع حول القواعد العميقة والتصرفات السطحية في الآداب الحميدة. ينظر:
D. Picard, *les Rituels du savoir-vivre*, Seuil, 1995.

قيم القواعد ورهاناتها

عندما ننخرط في علاقة مع الآخر، فإننا نخوض مخاطرة بأن نتعرض للقبول أو الرفض؛ أن نحظى بالتقدير أو بالإهانة. وإحدى الغايات المركزية للتواصل هي أن ترى الذات تعزيزا لصورتها الاعتبارية (وهو ما يطلق عليه، منذ أعمال عالم الاجتماع الأمريكي إرفنغ غوفمان، «ماء الوجه» la «face»). وذلك ما يستلزم الظهور بمظهر لائق (حفاظا على «ماء الوجه») ومعاملة الآخرين بلياقة (حتى لا يفقدوا «ماء وجههم»): «إن الصورة التي تقدمها عن ذاتك، والسلوك الذي تتبنى، لترسخ أسلوبا في العيش، هي سمة الاحترام المتبادل الذي ترجو خلقه»[5]. فالظهور بمظهر لائق ومعاملة الآخرين بالحسنى نابع إذن من مبدأ احترام الذات والغير.

ويشمل احترام الذات التوفر على هيئة حسنة: أن تكون أنيقا، بملابس نظيفة وملائمة للذوق، مع الحرص على الوقار، والتحكم في اللسان... وهذا كله لا يرتبط إلا يسيرا بالنرجسية والتكبر. ومن ذلك تنشأ قاعدة أخلاقية: «إن أي خرق لقواعد الأناقة أو ببساطة لقواعد النظافة (من ذا الذي يقدر على نفي روعة الاستحمام يوميا ومزاياه الجمة؟)، هذا الخرق البسيط تتولد عنه بسرعة خروقات أخرى: كضعف في دقة اختيار ملابسك أو أحذيتك يقود إلى ضعف في دقة اختيار أصحابك، وضعف بالخصوص في أخلاقك». فالهيئة الحسنة تقوم إلى حد كبير بوظيفة اجتماعية؛ فهي وسيلة تظهر بها أنك جدير بالاعتبار، ومن ثم تساعد الآخرين على معاملتك باحترام. ذلك أن الفكرة التي تقول بأننا لا نحترم سوى من يحترمون أنفسهم راسخة في العقليات. وفي الواقع، فإننا باستعمال لفظة «شخص محترم» نعني أنه شخص لا غبار على هيئته. ويقال أيضا إنه صعب أن «تحترم من لا يقدر قيمة نفسه». وقد سمعت شخصيا هذا القول المأثور في مناسبات متعددة: في حالة إدمان بعض الأطر أو القادة السياسيين على الخمر؛ أو في حالة الإهمال الذي يصيب من تعرض للبطالة مدة طويلة، إلخ.

أما احترام الآخرين، فهو منحهم المكانة والاعتبار الذي يليق بهم وعدم فرض النفس عليهم. ويترجم ذلك بعلامات تدل على المراعاة واللباقة.

فما من تأدب إلا ويكون محاطا بإشارات دالة على المراعاة. فمنذ صغرهم، نعلم أطفالنا، على سبيل المثال، أن يلقوا التحية على الأشخاص بحسب صفتهم، فلا يصح أن يقولوا: «صباح الخير»، وإنما «صباح الخير يا سيدتي». وبالتقدم في العمر، ندرك تعقيدات مواجهة عمدة أو نائب، فنقر له بصفته ونضعه في مرتبة تعلو على مكانتنا، فنبدأ الرسالة بعبارة «سيدي العمدة» ولا نكتفي بـ«سيدي»؛ ونختمها بإبداء «الاحترامات» وليس بمجرد «التقدير».

وتقدم العلاقات بين الرجال والنساء مثالا معبرا عن المراعاة. فيتعين على أي رجل أن يبدي احتراما للنساء في كل مناسبة؛ فلا يستطيع الجلوس إلا بعدهن، ولا يقدر على التدخين إلا بموافقتهن، ويحرص على أن يروق لهن حديثه؛ وعليه أن يسهر على راحتهن، فيساعدهن في ارتداء المعطف أو خلعه، ويبادر إلى فتح الأبواب لهن، ويدفع لهن الكرسي للجلوس، ويتخلى لهن عن أفضل الأماكن بالمسرح، وعن المقعد الفخم بالمطعم، ومرافقتهن، والتخلي لهن عن الصدارة... ودفع الحساب.

وبالنسبة للّباقة، فقد اعتبرت عموما بمثابة «صقل للتأدب». فأن تكون لبقا معناه أن تساعد الآخرين على ترك انطباع جيد في المجتمع؛ كتجاهل الأخطاء والهفوات التي ترتكب بالقرب منك (يستحسن، على سبيل المثال، تجاهل الرد على عطسة شخص مرح بـ «يرحمك الله»).

---

(5) اقتطفت هذه الشواهد من مصنفات عدة نشرت منذ مطلع القرن العشرين.

حماية المجال

ولكن امتلاك اللباقة، يعني كذلك، من وجهة نظر تطبيقية، احترام ملك الغير وملكيته ومجاله: فلا نقترض شيئا يخصه دون استئذان، ولا يصح استعمال هاتف المستضيفين، ونتجنب دخول مكتب دون طرق بابه، ولا نقوم بـ «زيارة» مطبخ وغرف شقة نقتحمها للمرة الأولى... وعلى مستوى أكثر رمزية، تترجم اللباقة أيضا باحترام النطاق الشخصي للآخرين وحياتهم الخاصة وأسرارهم: فـ «لا للفضول الذي يفشي الأسرار، ولا تجبر أبدا أحدا على أن يفضي إليك بأرباحه، أو مصاريفه، أو أن يفصح لك عن جزء من حياته الخاصة». وفي عبارة موجزة: علينا التحلي بـ «الحياء»، ذلك المبدأ الذي يضبط المسافة «الجيدة» مع الغير. فلا نكون أكثر قربا (فنثير انزعاجه أو نعرض أنفسنا للصد)، ولا أكثر بعدا، لأن الحياء يجب ألا يكون مرادفا للنبذ أو للازدراء: «تسلح بالحياء في مواجهة أشخاص فضوليين، مندفعين، لكن لا تتوهمن أنه عليك الجمود في سلوكك؛ فصدقا يمكنك التبسم. فإذا بدا أن الناس يتهجمون عليك (...) فتظاهر بالغباء، أو بالصمم، وابتعد بهدوء عن هذا التيار المندفع من التعاطف». وفيما مضى، كانت «الآداب الحميدة» تقتضي سلسلة من الإشارات المقننة التي تمكن من معرفة ما إذا كان المرء مستعدا أم لا للاستضافة. ولهذا كان من حق كل ربة بيت أن يكون لها «يومها» الخاص حيث يجدها الزوار متفرغة (ومؤدى ذلك أن الزيارة المفاجئة في وقت آخر لا تكون منتظرة). أو عندما نريد الرد بكياسة على زيارة دون أن نلزم أنفسنا بارتباط، فنكتفي بوضع بطاقة زيارة «مزوّاة» بمقر سكنى الشخص... فيفهم من ذلك إذن بأننا كنا لنبقى هناك. وفي أيامنا هاته، يكفي تحفظ موزون بعناية لكي نرتبط بعلاقة أو للتخلص من متطفلين محتملين.

وعلى ذلك، يقوم احترام ماء الوجه والمجالات الشخصية بدور في الدفاع الهوياتي أو العلائقي. ومن هذه الزاوية، يمكن اعتبار التأدب بمثابة نظام وقائي للغاية، لأنه لا يشرع قواعد للظهور بمظهر لائق ويحدد مجالا حميميا من دون وقاحة فحسب، بل إنه، علاوة على ذلك، يمنع من ملاحظة أي مظهر سلبي لدى الآخرين، بالقدر نفسه الذي يحظر كل تطفل على حدود الغير.

مدونة استراتيجية

لكن ليس هذا كل شيء. فالدخول في علاقة مع الآخر، لا تكون بهدف مدافعته فقط؛ بل من أجل القدرة على التواصل معه أيضا. وعلى مستوى التواصل، فإن التأدب كذلك مدونة code تتيح الاتصال وتيسره في الظروف المثلى: بمضاعفة الأرباح والتقليص من المخاطر. ومن هذا المنظور، يبدو كمدونة سلوك استراتيجية.

وكما سبق ذكره، فإن مقابلة الآخرين وضعية يمكن اعتبارها «إشكالية». لكن، عندما نواجه مثل هذه الوضعية، فإننا نسعى إلى الانخراط في سلوك يهدف إلى تجنب المخاطر المحتملة أو الالتفاف عليها، أي أننا نتبع استراتيجيات للدفاع والحماية. وتختلف هذه من شخص لآخر، بيد أنها عندما تستقر على شكل ثابت لتصير، في بعض الحالات، سلوكا شبه إلزامي، فإنها تشكل حينئذ «طقوسا».

والظروف الإشكالية، في الحياة الاجتماعية، هي أساسا تلك التي بإمكانها تهديد ماء الوجه أو تؤدي إلى انتهاكات للمجال الخاص. وهي عديدة ومتباينة: عندما يتعين علينا التعامل مع بيئة مختلفة؛ أو لمَّا نكون في مواجهة زلة أو معصية؛ أو في حالة الإعداد لحفل؛ أو عندما يتوجب علينا الالتقاء بشخص مجهول لنا...

وفي هذه الحالة الأخيرة، يطرح سؤال بحدة: أي سلوك يجب التحلي به؟ فالدخول في علاقة مع شخص ما، يشير رمزيا، إلى اقتحام مجاله الخاص: فالمبالغة في رفع الكلفة، قد يشعره بأنك تغزوه (وبهذا نرتكب «إهانة مجالية» offense territoriale)؛ بينما المبالغة في البعد، قد تشعره بالجمود والنبذ (وسيكون ذلك إراقة لماء وجهه). وفضلا عن ذلك، فإننا نجازف بأن نبدو بمظهر الوقح أو سيء التهذيب،

مما سيضر، هذه المرة، بماء وجهنا. والوضعية ليست بالسهلة... كما يشهد بذلك هذا الحوار بين شاب وفتاة يحاول تقديمها لأمه: «أتعتقد أنه عليَّ تقبيلها؟ وأنا لم يسبق لي أن قابلتها؟ ـ ولكن بلى. إذا اكتفيت بالمصافحة، فسوف تغتاظ».

مواجهة الإحراج

وللتأدب دور أيضا في مواجهة الإحراج والضيق في المجتمع. ولهذا الغرض، فقد أنشأ نوعا من دليل للمواقف الحرجة وكذلك استراتيجيات التصدي لها. وفي بعض الحالات، لا تعدو أن تكون مجرد نصائح موجهة بنبرة تشتد أو تضعف في الحزم: «لا يجب أبدا أن نستعمل تعبير «صباح الخير سيدي ديبون» (...)، بل نقول «سيدي»». «من المستحسن حجز هدايا شخصية (ملابس داخلية، عطور) للأشخاص الذين نعرفهم جيدا». ورغم ذلك، فبقدر ما نبتعد عن العالم اليومي، نكون أمام أحداث لها رهاناتها الرمزية الثقيلة (الحياة، والجنس، والسلطة، والموت...)، وتصير السلوكات طقوسية. وهذا ما يصدق، بوجه خاص، على الولادات وحفلات الزفاف والجنائز، مما يميز مراحل أساسية من حياة الأفراد والجماعات. وهكذا، تبدو الطقوس الاجتماعية وسيلة رمزية لتوجيه العواطف، وتنظيم السلوكات، وتفادي كل ما يمكن أن يخرب لحظات الحياة الكبيرة والصغيرة.

مختلف أنواع طقوس التأدب

تخضع طقوس التأدب جميعها لقوانين كبرى. ومثال ذلك، تلك المتعلقة بالمعاملة بالمثل: فلا أحد يستطيع أن يكتفي بالأخذ، ولا أن يكتفي بالعطاء، وأي شكل لعلاقة (حتى الأكثر هرمية) يجب أن يحافظ على نوع من التوازن. بيد أن هذه القوانين تتحدد تبعا للمجال الذي تطبق فيه: فتح قناة للتواصل أو إغلاقها، أو تعزيز الأدوار الاجتماعية، أو ضمان المرور من حالة إلى أخرى.

* فـ «طقوس الدخول» تنظم التواصل والطريقة التي ندخل بها في علاقة مع الآخرين: «اعذروني، هل أثقل عليكم؟ ـ على الرحب والسعة، بم يتعلق الأمر؟». هذا قولان تقليديان: اعتذارات وقائية من التعرض لإهانة (مجالية) افتراضية؛ ورد مطمئن (لا يحمل أي إهانة). ومن هذه الزاوية، يمكن اعتبار طقوس الدخول بمثابة طقوس وقاية وترضية. ولكن ليست هذه وظيفتها الوحيدة. فبفتح علاقة، يتوجب عليهم تحديدها أيضا من حيث المواقع والوضعيات أو الهويات (أو التذكير بالتحديد إذا كان سابقا على الاتصال).

وهكذا، فإن «التقديمات» التي تفيد في ترتيب لقاء يجب أن تسمح للشركاء بالتعارف المتبادل فيما بينهم والتعريف بمواقعهم الاجتماعية الخاصة بهم. ولأجل هذا فإن هناك قاعدة تحدد ترتيب تقديم: فنستهل دائما بتقديم الشخص الأدنى مرتبة. ومن ثم، يعرف كل واحد كيف يحدد موقعه(6). وتعتبر «التحيات» الشكل الأكثر تداولا من بين طقوس الدخول. وتكون كذلك خاضعة لعلامة الأسبقيات حيث يجب على من كان في وضعية أدنى أن يبادر دائما إلى تحية من هو أعلى منه مرتبة. ولكن ذلك قد يعدل تبعا لمعايير معينة مثل درجة الحميمية (فنحن لا نحيي الزميل الذي نشاركه المكتب وبواب المدخل بالطريقة نفسها) أو تبعا للمكان الذي نتواجد فيه: ففي شقة خاصة، يمكن أن ننخرط في سيل متدفق من التحيات، بينما في الشارع نكتفي بـ «تلويحة باليد من بعيد».

* وتصلح «طقوس التأكيد» أساسا لحفظ ماء الوجوه ولدعم هويات الفاعلين. وتشمل بصفة خاصة كل العلامات التي ندعوها بـ «التبجيل»، والتي وظيفتها إظهار التقدير الذي يستحقه المرء: فتكون له الأسبقية في المرور، ونتنازل له عن مكاننا في المترو، ونعطيه مكان الشرف على المائدة، إلخ.

---

(6) إن عالم التأدب في الواقع شديد الهرمية. فالأطراف الفاعلة فيه تتدرج في فئات ثنائية يعلو دوما فيها عنصر على الآخر: رب عمل/مستخدم؛ شيوخ/شباب؛ امرأة/رجل...

ومع ذلك، يمكن للتأكيد أن يشمل كذلك العلاقة التي تربطه بشريكه. وهنا أيضا، يولد التأدب بعض الالتزامات، مثل إرسال تحياته كل سنة (والرد على تلك التي يتوصل بها)، والسفر للزيارة وتلبية الدعوات على فترات منتظمة، وتقديم هدية عيد الميلاد للمقربين...

* أما بالنسبة لـ «طقوس العبور»، فهي تيسر تحويل الأدوار وتطوير الأنظمة بمرور الزمن. وتأخذ شكل احتفالات حقيقية تجمع عموما بين الديني والدنيوي. وتحدد المراحل الأساسية للحياة: فهدايا الميلاد والتعميد للاحتفال بدخول حديثي الولادة إلى المجتمع؛ والزواج لتأسيس أسرة؛ والجنائز للاحتفاء بالانتقال النهائي...

وتوجد أوجه تشابه بين هذه المراحل كلها. ففي كل مرة، يجب أن نمنح للحدث صدى واسعا (شكل إعلانات وبلاغات). وتكتسي الحفلات شيئا من الاحترام الطقوسي الشديد (اللباس الرسمي، والمواكب، والمجاملات أو التعازي، والالتزام...). وكل طقس للعبور يجمع على نحو وثيق بين المرء المحتفى به والمجموعة التي ينتسب إليها. ففي حالة الزواج، مثلا، لا نحتفل فحسب بالاتحاد بين الزوجين، بل كذلك بالمصاهرة بين عائلتين. وكل من آباء الزوجين يعلنون معا عن الدعوة إلى الزفاف في بطاقة الدعوة نفسها؛ وفي الموكب، يكون الزوجان مرافقين بفرد من كل عائلة؛ وتوزع رئاسة الموائد بالطريقة نفسها، إلخ. وذلك لأن الأحداث الكبيرة يكون صداها الشخصي (أي تغيير وضعية شخص) أقل تخطيطا مقارنة بآثارها الاجتماعية. إننا نغير موقعنا داخل نظام يشملنا ويتجاوزنا. والحفلات الكبرى هي كذلك مناسبة لتذكير المجتمع، في الوقت الذي يتوجب عليه التصديق على التغيرات، بأن القواعد التي تقوده والمبادئ التي توثق عراه تبقى ثابتة. وفي هذه الحالة تبرز واحدة من الوظائف الرئيسية للطقوس: توطيد وحدة الجماعة.

وهكذا، فإن الطقوسية في التأدب تتجلى كنوع من آلية دفاع جماعية (ضد الإحراج، وغير المتوقع، والتغيير...). لكن ينبغي ألا ننسى أيضا أنها لغة، مركبة من أفعال وصيغ نمطية، تسمح بتواصل فوري ومتواضع عليه. وهذه كلها علامات تساعد على التأكد من أن المحاور عضو مخول له من الجماعة: شخص للمعاشرة، من صنف «كما ينبغي»، والذي نعرف مسبقا أنه «سيلعب اللعبة». وفي الواقع، فإن الذي لا يمتثل للطقس يحرم نفسه من العلاقات الاجتماعية. وهذا يبرر الأهمية التي يمنحها كل واحد، أيا تكن خلفيته، لبعض مظاهر التأدب.

مركز أفكار للدراسات والأبحاث

Afkaar Center for Studies and Research

https:// Afkaar.Center

afkaarcenter@gmail·com

twitter·com/AfkaarCenter

facebook·com/AfkaarCenter

ALL RESERVED©2020

جميع الحقوق محفوظة © 2020